الطائر الأزرق

للكاتب الأسباني روبين داريو

بقلم الأديب شكري محمد عياد

تعريف بالقصة

روبين داريو كاتب أسباني عاش في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين وشهرته الأدبية قائمة على أشعاره وإن كان قد جمع إلى الشعر كثيراً من النقد والرحلات وقليلا من الأقاصيص ، ويعد روبين داريو صاحب أبدع أسلوب أسباني في العصر الحديث ، وشعره يجنح إلى الاغراق في الوصف الحسي . ولكنه غني باللفظ الجميل والخيال البعيد . وقد كان داريو مغرماً بالأدبين الافرنسي واللاتيني . عظيم الانتفاع بهما في شعره وهذه الأقصوصة الصغيرة من خير ما كتب ، وأصحه تمثيلا لفنه وطريقته

باريس بلد طروب ولكنه مخيف . فلم يكن أحد بين رواد مقهى بلومبيير من الرسامين والنحاتين والشعراء — وهم شباب كلهم يطمحون إلى إكليل الغار القديم — من هو أحب إلى القلوب من جارسن المسكين . كان دائم الحزن ، يدمن شراب الأبسنت ، تسكره الأحلام ولا تفوله الخمر ، يحسن — ككل بوهيمي — ارتجال الكلام

وكانت تزين جدران حجرتنا الصغيرة التي كانت مقعد اجتماعاتنا المرحة ، رسوم ريشة من أصبح يوماً « دلاكروا »[1] ، بينها أبيات من الشعر في خط ثقيل منحن ، مقطوعات كاملة لطائرنا الأزرق

والطائر الأزرق هو جارسن المسكين . ألا تعلم لماذا أطلقت عليه هذه الكنية ؟ نحن الذين أطلقناها لم تكن مجرد دعابة . فقد كان سكيراً حزيناً . وحين كنا نسأله لماذا يعبس ويحدق في السقف بينما نحن جميعاً نضحك كالمجانين أو كالأطفال السذج كان يجيب في ابتسامة مرة : « يا رفاق ، إن برأسي طائراً أزرق ، ولهذا ... »

... ثم إنه كان عظيم الشغف بارتياد الحقول إبان الربيع . فقد كان هواء الغابات يلائم رئتيه كما كان الشاعر يقول لنا . وحين كان يشوب من رحلاته كان يحضر معه دائماً باقات من الزهر وبطاقات من الشعر . أما الزهر « فلنيني » جارته ، وهي فتاة غيسانة لها خدان مورد ان وعينان عميقتا الزرقة ؛ وأما الشعر فلنا ، وكنا نقرؤه ونطرب له ، فقد كنا جميعاً نعجب بجارسن . كان نجماً يوشك أن يتألق ، كان وقته لا ريب سيجيء . أوه ؟ سوف يحلق الطائر الأزرق في السموات العلى ! مرحى ياجارسن ! هات أيها الساقي كأساً أخرى من الأبسنت

* * *

خذ من الزهر بنفسجه ،
ومن الجوهر صفيره[1] ،
ومن الحياة السماء والحب

تلك مبادئ جارسن . ثم : « الجنون خير من

(١) دلاكروا رسام فرنسي شهير ، ملون ماهر وبعده للثر ، كان رأس المدرسة الرومانتيكية في القرن التاسع عشر (١٧٩٩ — ١٨٦٣)

(١) Sapphise نوع من الياقوت أزرق اللون

الجود » هكذا كان الشاعر يقول

* * *

وكان الحزن يرين على نفس جارسن من حين إلى حين ، فيقطع الشوارع لا يأبه بالمركبات الفاخرة ولا بالشباب الفرانيق ، ولا بالنسوة الفارهات . وقد يبتسم حين يمر بحانوت جوهرى ؛ ولكنه كان إذا صادف مكتبة اقترب من النافذة وحدّق فى محتوياتها شرهاً . وكان يقول : إن الحقد يسمّر قلبه حين ينظر إلى المجلدات الضخمة ويغشى وجهه العبوس . وليسرى عنه الهم قد ينظر إلى السماء ويتنهد ، ثم يهرع إلينا فى المقهى ثائراً مهتاجاً فيطلب كأساً من الأبسنت ويقول : « أجل إن برأسى طائراً أزرق حبيساً يريد الحرية »

* * *

وبدأ بعض الصحاب يظن أنه مجنون

واستشير إخصائي فى العقل فقال : إنه مصاب « بالمونومانيا (٢) » ، ولم يبق شك فى أمره

حقاً لقد كان جارسن المسكين مجنوناً

وذات يوم تسلم من أبيه خطاباً . وأبوه هذا تاجر قديم من تجار القماش فى نورماندى . وكان هذا مضمون الخطاب :

« لقد سئمت بسلكك الطائش فى باريس . واعلم أنك إن واظبت عليه فلن تنال دانقاً منى . تعال وقم على حساب المتجر ، فإذا أحرقت أيها الأحمق كل كتاباتك البليدة ، فإنك تستطيع عندئذ أن تنعم بحالى »

وقد قرئ هذا الكتاب جهرة فى مقهى بلوبير

هل تذهب ؟ ألا تذهب ؟ هل توافق ؟ هل تفكر فى مثل هذا الخطاب ؟

(٢) Monomanie أو جنون الفكرة الواحدة

مرحى يا جارسن ! لقد مزق الخطاب وأطل بجذعه من النافذة ، وهو يضحك فى صوت مجلجل وارتجال مقطوعة تنتهى على ما أستطيع أن أذكر بهذين البيتين :

ولست بباك على شقوتى ... ولا أنا ذاك الذى يُشنق
إذا نال فى رأسى البقرىّ ... مقيا به الطائر الأزرقُ !

* * *

ثم بدأت أخلاق جارسن تتبدل ، فجنح إلى الثرثرة ومال إلى المرح ، وابتاع سترة جديدة ، وبدأ قصيدة ممنونة ـ بالطبع ـ « الطائر الأزرق »

وحينما كنا نلتقى كل مساء كان يقرأ لنا منها جزءاً جديداً . لقد كانت رائعة ، سامية ، خلابة . كانت تصور سماء بديعة ، وحياة طليقة ، وحقولاً كأنما رسمتها ريشة « كوردت (١) » السحرية تلوح وجوه الأطفال من بين أزاهيرها ، وعيسى « نينى » خصلتين كبيرتين ، وطائراً أزرق أرسله الله محلقاً فوق ذلك كله ، فبنى وكره دون أن يعلم فى رأس جارسن المسكين ، وبقى هناك سجيناً . فإذا أراد الطائر أن ينطلق من محبسه ، رف بجناحيه ، وضرب بهما جدران سجنه ، فيرفع الشاعر رأسه ، ويعقد جبينه ، ويشرب الأبسنت بماء قليل ، وهو يجتر فى نفس الوقت سيجارة . تلك كانت المقيدة .

وذات ليلة جاءنا جارسن يضحك ضحكات عالية ، ولكن الحزن مع ذلك جاثم فوقه .

* * *

لقد حملت جارته الجميلة إلى المقبرة .

« لقد جئتكم بشىء جديد : الجزء الأخير من قصيدتى . لقد ماتت نينى . الربيع يقبل وتدبر نينى يستطيع البنفسج أن يطمئن على سوقه . والآن إلى

(١) كوردت : رسام فرنسى اشتهر برسائله الريفية (١٧٩٦ — ١٨٧٥)

خاتمة القصيدة ، إن الناشرين لم يتفضلوا على بقراءة أشعاري ، سوف يتصدع شملكم جميعاً . إنه قانون الرسن . يجب أن تنتهي الخاتمة : « كيف انطلق الطائر الأزرق إلى السموات الزرقاء ... »

الربيع في عنفوانه ! الأشجار تزهو بخضرتها . السحب وردية في الصباح شاحبة في المساء . النسيم الرقيق يداعب أوراق الشجر ويلهو بخيوط أكواخ القش . ولكن جارسن لا يذهب إلى الحقول . ها هوذا يأتي ، في سترة جديدة ، إلى مقهى بلومبير الحبيب ، شاحباً وهو يبتسم في حزن : « ودعوني يا أصدقائي بعل ، قلوبكم ، فإن الطائر الأزرق يوشك أن ينطلق ... »

وبكى جارسن المسكين ، وصافح أيدينا في قوة وذهب

وقلنا جميعاً : سيعود الولد العاق جارسن إلى أبيه في نورماندیا . وداعاً أيها الشعر ! وداعاً أيها الجمال ! لقد أزمع شاعرنا أن يبيع القماش ! هيا ! كأسا لجارسن .

وفي اليوم التالي وقف رواد مقهى بلومبير جميعاً في مسكن جارسن خاشعاً وبكيا

لقد كان الشاعر مسجى على فراشه الملطخ بالدم ، ورأسه قد هشمته رصاصة وعلى الوسادة فاذ من مخه ... فما أبشع !

وحين أفقنا من هول الصدمة ووقفنا نبكي على جثمان صديقنا ، وجدنا تحت القصيدة الشهيرة ، وقد خطت على الصفحة الأخيرة منها هذه الكلمات : « اليوم ، في عنفوان الربيع ، فتحت باب القفص للطائر الأزرق المسكين »

آه يا جارسن ! وما أكثر الذين يفريهم الحزن مثلما فراك !

شكري محمد عياد

الفصول والغايات

معجزة الشاعر الطائب

ابي العلاء المعري

طرفة من روائع الأدب العربي في طريقته ، وفي أسلوبه ، وفي معانيه . وهو الذي قال فيه ناقدو أبي العلاء إنه عارض به القرآن . ظل طول هذه القرون مفقوداً حتى طبع لأول مرة في القاهرة .

صححه وشرحه وطبعه الأستاذ

محمود حسن زناتي

ثمنه ثلاثون قرشاً غير أجرة البريد

ويطلب بالجملة من إدارة مجلة « الرسالة »

ويباع في جميع المكاتب الشهيرة

رفائيل

لشاعر الحب والجمال لامرتين

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر

ومن إدارة « الرسالة »

الثمن ١٢ قرشاً